

يصيح ملء حشدنا

رسالة الشهيد ... ان ينتصر الشهيد .

عندما سقط القادة الثلاثة في شوارع بيروت ، كانوا يحملون في دهمهم بذرة التجدد . كتبوا بحناجر عشرات آلاف الذين خرجوا لوداعهم قصة الاستمرار والصمود . فهم جزء من قافلة طويلة من الاجساد التي تلتف على الارض وتعيد اليها حرارة العشب وارتعاشة اللقاء . فالقافلة التي تصدرها النقادة الثلاثة ورفاقهم تستمر في العطاء وتنتشر لتشمل الارض العربية بأسرها . هنا تتجدد الثقافة فيها يتجدد كل شيء . فرغم كل المحن ، والمصاعب ، يرتفع الصوت العربي ليرسم من داخل الاطوار الدموي لوحة الاستمرار والتخطي .

لم نكتب نقدا ادبيا لآثار كمال ناصر . فالصرخة الحادة لا تبحث لنفسها عن اطر تصب فيها . تخرج هكذا ، عندها تكون الحجرة موددة بالانفجار او الاختناق . فيخرج الصراخ عاليا ليؤلف القزما ثوريا وتوترا قادرا على الترد .

يرتفع صوت الشهيد فينا ، فنحبل الرسالة ، تصنع الاجساد التي سقطت على الارض ، شكل الرؤيا المستقبلية . فالشعر هنا ، يصبح رسالة مباشرة ، وتتحول الكتابة الى التزام من موقع المسؤولية الجماهيرية المباشرة . فكمال ناصر رسام بكلماته اطار الالتزام ، ثم جاء دمه وجسده ، ليعطي لهذا الاطار حجم الموت .

» يصيح ملء دربنا

يصيح ملء شعبنا

صيا دون في شارع ضيق

شاهدا من الداخل والخارج على هذه العملية المعقدة . فهو في الخارج ، لانه لا ينتمي الى الآلية الخاصة التي تفتت هذه الطبقة وتجعلها تنهار . وهو في الداخل ، لانه يلعب دور المسرح الثقافي لهذه العملية . ويتحكم كذلك بالتقاط المشاهد التي تعرض أمامنا ، في لوحة بالغة الغنى والدلالات ، من لوحات ادبنا العربي الحديث .

١ - صيغة المفرد والاسقاط الثقافي :

الصيغة الوحيدة التي يستعملها الكاتب في سياق روايته هي صيغة المتكلم المفرد . فتجري الرواية بأسرها على لسان البطل ، رغم ما يتخللها من الحوارات التي تحل هنا محل شريط الذكريات او التأملات الذاتية . رغم ان هذا الشريط لا يغيب بشكل كامل عن سياق الرواية ، فغائبي بشكل سريع ، ليشير الى لحظة لا بد من استرجاعها ، حتى تكتبل دلالات الموقف الدرامي الذي يقودنا اليه الكاتب . ولا يشذ عن هذه القاعدة العامة سوى في لحظتين - الاولى حين يستلم جميل الفران رسالة من حبيبته سلافه ، حيث نقرأ الرسالة عبر المؤلف . والثانية حين نتوقف لقراءة مذكرات عدنان

قبل ان يجتمع ابطل جبرا ابراهيم جبرا في « السفينة » ويشهدوا بشكل تراجمي لنهاية حلم التطور التحديتي الذي حملته شرائح من المثقفين والبرجوازيين . كان صوته يبعث في شارع ضيق من شوارع بغداد عن تفسخ الطبقة الاقطاعية وضرورة خروجها من المسرح بشكل عاجل . لذلك اختار المؤلف لروايته اطارا محددنا بغداد بعد هزيمة ١٩٤٨ . ورسم الدائرة التي تتحرك داخلها أحداث روايته ... شبكة معقدة من الشخصيات تنتمي في غالبيتها الى نفس الطبقة الاجتماعية - الاقطاع - أو زعماء العشائر . وجعل صيغة المفرد التي تجري على لسان البطل ، تغلف الرواية بأسرها ، وتروي الاحداث من منظورها الشخصي . وترك الطبقة الاقطاعية تفتت من داخلها ، جاعلا من بطله جميل الفران - الفلسطيني المثقف الذي درس في إنجلترا وعاد الى وطنه ليجدده خطاها وعائلته تحولت الى جزء من جيش اللاجئين -

* جبرا ابراهيم جبرا ، صيادون في شارع ضيق ، ترجمة محمد عصفور ، دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى كانون الثاني ١٩٧٤ .